صفحات من تاريخ وَلاتة

أ.د. أحمد الشكري
معهد الدراسات الإفريقية – جامعة محمد الخامس/الرباط

ما من شكٍّ بأنّ الخصائصَ المناخية للفضاءِ الصّحراويّ كان لها الدَوْرُ الأساسُ في حمل القبائل المنتشرة، بالمجال المعني، على اعتماد نظام التّرحال لأجل كَسْب لقمة العيش[1]، من ثمّ نَتَفَهّم ضعف النسيج الحضريّ على امتداد الصّحراء الإفريقية الكبرى أفقيّاً وعموديّاً.

(١) إذا انطلقنا من المحيط الأطلنطي في اتجاه بحيرة تشاد، نجد أنّ أهمّ المجموعات القبلية المنتشرة بالصحراء وحوافها الشمالية خلال العصر الوسيط: (صنْهاجة، ومَصْمُودة، وزَناتة، وهوارة)، وإذا غضضنا الطرف عن العناصر العربية الوافدة على بلاد المغرب في إطار الفتوح الإسلامية (وأعدادها قليلة مقارنةً بالسكان المحليّين)، فإنّ زحف القبائل العربية من بني هلال وبني سليم، انطلاقاً من مصر خلال القرن ١١م، جعل الطلائع الأولى لهذه القبائل تصل إلى المحيط الأطلنطي (منطقة سوس جنوب المغرب) في نهاية القرن ١٤م، ثم تابعت زحفها نحو الجنوب لتسيطر على المجال الشنقيطي بنهاية القرن ١٧م، وبذلك استقر الوضع الديموغرافي بالمجال الصحراوي الموازي لبلاد المغرب من الشمال وبلاد السودان من الجنوب، وتهيأت المنطقة لمرحلة جديدة من تاريخها. وسوف نبيّن مدلول هذه المفاهيم الجغرافية.

وعلى الرّغم من تطوّر الحضارة البشرية، وما شهدته تقنيات العمارة والتواصل من ازدهارٍ ونموٍّ عظيم، فإنّ الخريطة الحضرية، إلى الوقت الراهن، لم تعرف تغيّراً ملموساً على امتداد المساحة الممتدة من المحيط الأطلنتي إلى النيل المصري.

في إطار هذا التصوّر؛ يحقّ لنا أنّ نعتبر نشوء مراكز حضريّة، أو «مدن القوافل» كما يحبّ أنّ يسميها الباحثون المختصّون، حدثاً تاريخيّاً بارزاً، بالنظر لما ينجم عن ذلك من استقرارٍ واستبحار العمران، وتطوّر أساليب العيش وفنونه، وما يرافق ذلك عادةً من انتقال الأهالي من تقاليد الثقافة الشفويّة إلى تقاليد التدوين.

وفي هذا السياق؛ لا نعدم الشهادات المَصْدَرِيّة الدّالة على العناصر الأساسية المساعدة في نشأة مدن القوافل وتطوّرها، إذ إنّ توفّر الماء عبر الزخّات المطرية، أو الفرشاة الجوفية (الآبار)[١]، ناهيك عن توفّر عنصر الأمن المساعد على التواصل فيما بين المركز الحضريّ ومحيطه القريب أو البعيد عبر خطوط التجارة، يمثّلان عاملَيْن حاسمَيْن فيما نَحْنُ بصدده.

وَلاتَة في خطوط التجارة الصّحراوية:

يُجمع المختصّون على أنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد؛ أخذت التجارة الصّحراوية تعرف نموّاً مضّطرداً، حتى إنّ البعض منهم أصبح يُرجع سبب تحركات وتكتلات القبائل الصّنهاجية (وبخاصّة: لَمْتونة، ومَسُّوفَة، وجدالة)، منذئذ وإلى غاية منتصف القرن الموالي، إلى أنها محاولةٌ منهم للسيطرة على المجال؛ بغرض الاستفادة من الأرباح القيّمة التي باتت تُدرّها تلك التجارة، وأيضاً بهدف الانتصار للمذهب المَالكي، الذي اكتسح جلّ مناطق الغرب الإسلاميّ خلال القرن ٥هـ/١١م[٢].

إنّ تطوّر التجارة الصّحراوية خلال القرن ١٠م مهّد لتبعاتٍ متعدّدة الأبعاد، على ضفّتَي الصّحراء، أو على امتداد المحاور التجارية؛ مما اقتضى ظهور مجموعة من المراكز الحضرية (مدن القوافل) لأجل خدمة تلك التجارة المتنامية[٣]، في ظلّ هذه الطَفْرة، نشأت «بيرو»، التي ستُعرف لاحقاً باسم: «وَلاتَة»، أو «إيوالاتن» كما رسمها الرحّالة ابنُ بطوطة بُعَيْد منتصف القرن ١٤م[٤].

وإذا ما ألقينا نظرةً على موقع وَلاتَة، بالنسبة لخطوط التجارة الصّحراوية، نلاحظ أنه مُنشَدٌّ للشرق، قريباً من الحوض الأوسط لنهر النيجر، وبذلك نجده مبتعداً عن الخط المستقيم الذي ترسمه الطريق الرابطة بين «سِجِلْماسَة» و«نياني» عاصمة إمبراطورية مالي خلال

(١) انظر: – عبد اللطيف رمان وإبراهيم واحمان، الخصائص الطبيعية: الجيولوجية – البنيوية والمناخ، ضمن عمل جماعي: الصحراء الأطلنطية المجال والإنسان، منشورات وكالة الجنوب بتعاون مع جامعة ابن زهر بأكادير، ٢٠٠٧م، ص٢٤.
Mauny (R.), Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Amsterdam, ٢ème éd. Mémoires de l'IFAN, n ٦١، ١٩٦٧. pp ١٩٧-٢١٠.

(٢) عدد القبائل الصِّنْهاجية يناهز السبعين، وهي منتشرة في جلّ أرجاء الغرب الإسلامي؛ على أن تمركز القبائل الأساسية منها كان بالفضاء الصحراوي. ومن قلب الصحراء انطلقت لَمْتونة التي أسّست دولة المُرابطين خلال القرن ١١م، في حين اهتمت مَسُّوفَة بالجانب التجاري ولم تشغل نفسها بالأمور السياسية، وأما جدالة، المتمركزة عند مصبّ نهر السنغال؛ فقد كانت لها علاقات تجارية حيوية مع السودان جنوب النهر إلى غاية القرن ١٢م، ثم سرعان ما اختفى اسمها من المصادر خلال الفترات اللاحقة لأسباب ما تزال غامضة. وقد حاول المؤرخ الموسوعيّ ابن خلدون تجميع كل ما انتهى إليه من أخبار صنهاجة إلى نهاية القرن ١٤م في مؤلّفه (العبر). وللاستزادة عن أحوال القبائل الصِّنْهاجية خلال العصر الوسيط؛ نحيل القارئ إلى دراسة الزميل الأستاذ/ الناني ولد الحسين، صحراء الملثّمين، طرابلس، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧م.

(٣) Devisse (J.), «L'Afrique dans les relations intercontinentales», in Histoire Générale de l'Afrique., T. IV. Unesco/Nea 1985, ch. 26-730, p. 693.

(٤) أحمد مولود، مدن موريتانيا العتيقة (قصور ولاتة ووادان وتيشيت وشنقيط)، الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية، ٢٠١٤م، ص (٨٠-١٥٦)، وتقع وَلاتَة حاليّاً ضمن حدود جمهورية موريتانيا الإسلامية في أقصى الجنوب الشرقي.

القرنَيْـن ١٣ و١٤م، الأمر الذي يجعل مـن المدينة محطّة عبـور، شأنها في ذلك شأن «أودغشت» غرباً و «تَادمكة» أو «تَكدا»[١] شرقاً (انظر: خريطة المحاور التجارية).

وعلـى هذا الأسـاس؛ فإنّ نشأة «وَلاتَـة»، خلال القرن ٦هـ/١٢م، جاءت لتستجيب لحاجيّات التجارة الصّحراوية المتنامية، خصوصاً بعـد انهيار كلٍّ مـن «أودغشت» عند منتصـف القـرن ١١م، ثـم «غَانة» العاصمة خـلال القرن التالي[٢].

وغنـيٌّ عن البيان؛ أنّ ابتعـاد موقع المدينة عن الخطّ المستقيـم، المشار إليه قبل قليـل، وانشداده نحو الشرق، إنمـا هو تعبيرٌ عن رغبة القبائل الصّنهاجية في الاستفادة مـن مياه نهر النيجر، وليس محض صدفة أنّ يتطوّر بشكلٍ لافـتٍ محور «وَلاتَة - تنبُكتُ» ثم محـور «تنبُكتُ - جِنّي»[٣] علـى امتداد عدّة قـرون، سواء على المستـوى التجاري أو الاجتماعـي أو السياسـي. ومـما ينبغي توجيـه النظر إليه هنـا: أنّ استمرار «وَلاتَة» في الحيـاة- وإن بشكلٍ متقطّع-

(١) أودغشت: تقع على الطريق المنطلق من سِجِلْماسَة ووادي دَرْعَة في اتجاه آدرار، والـذي ينتهي عند أَودَغشت الواقعة حاليّاً في تداوست الموريتانية. وانطلاقاً من أودغشت في اتجاه الجنوب الشرقيّ نجد الطريق الذي يصلها بعاصمة غانة القديمة على بُعد ستة أيام. ونجد عند المؤرخ اليعقوبيّ وصفاً لها يوحي بأنّ المدينة كانت مزدهرة منذ نهاية القرن ٩م، ولعلّ هذا ما جعلها محطّ صراع قويٍّ ما بين المُرابطين ومملكة غانة، خصوصاً خلال النصفُ الأول من القرن ١١م. سيطر عليها قبيلُ زَناتة وفرض المذهب الإباضي بها، على أنه بعد قيام الدولة المُرابطية السنّية المالكية استطاعت السيطرة عليها، لتنهار المدينة خلال النصف الثاني من القرن ١١م.
تَادْمكّة: شأن أودغشت؛ أخذ أهلُ المدينة بالمذهب الإباضي، وقامت بها مملكةٌ قويةٌ يرأسها بنو تانماك الإباضيّون فيما بين القرن ٨ و١٠م، وخلال القرون اللاحقة بدَا حضورها خافتاً في المصادر العربية؛ ما يعني أنها افتقدت حيويتها التجارية التي كانت لها قبل القرن ١٠م. وتفيدنا المصنفات الجغرافية أنّ منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر (حيث توجد كوكو)؛ كانت ترتبط بإفريقية (تونس) عبر الطريق الصّحراوي الواصل ما بين كوكيا والقيروان مروراً بتادمكة، من ثمّة: كان لتادمكة الـدَوْرُ الأساسُ في انتقال التأثيرات الإسلامية إلى هذا الجزء من بلاد السودان منذ منتصف القرن ١٠م، وموقعها حاليّاً ضمن حدود جمهورية مالي.
تَكدا (تَكدة): اشتهرت بمناجم النحاس، وحسب ابن بطوطة؛ فقد كان هذا المعدن يجد رواجاً كبيراً في أسواق مصر، والأمـر سيّان بالنسبة للسلع المصرية لدى أهل تكدا، وبخاصّة الملابس، ويظهر أنّ أهل تكدا من التجار المتمرّسين؛ إذ كانت لهم علاقات تجارية وثيقة مع جلّ القوى الإسلامية بشمال إفريقيا. انظر:
- أحمد الشكري، العلاقات الفكرية بين المغرب وإفريقيا جنوبي الصحراء عبر العصور، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط ٢٠١٥م، ترجمة عن الأصل الفرنسي لمحاضرة البحّاثة الأمريكي الأستاذ جان هانويك: جامعة نـورث ويستيرن، شيكاغو – الـولايـات المتحدة الأمريكية، ص (١٣-١٦).
- حماه الله ولد السالم، حركة المُرابطين بين العصبيّة والدعوة، الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية ٢٠١٥م، ص٢٨-هامش رقم ١.

(٢) لا نعرف على وجه التحديد تاريخ نشأة «مملكة غانة» في منطقة أوكار الواقعة فيما بين نهر النيجر ونهر السنغال، وتعود أولى الإشارات المَصْدريّة إليها إلى القرن ٨م، وكانت عاصمتها تحمل الاسم نفسه، أي «غَـانَـة». ويظهر أنّ هذه الوحدة السياسية السودانية قد عرفت تطورات بالغة الأهمية خلال القرنين ١٠-١١م، بفضل احتكاكها بالتجار المسلمين الوافدين من الصّحراء وبلاد المغرب، وتشهد المصادر على أنّ العلاقات التجارية ما بين غانة الوثنية وأهل أودغشت الإباضيّين كانت متطوّرة خلال القرن ١١م. وحينما قامت دولة المُرابطين السنّية المالكية؛ هاجمت أودغشت وسيطرت عليها عـام ١٠٥٥م، بَيْـد أنّ انشغالهم بالشمال جعلهم يهملونها، فانهارت المدينة بعد ذلك، خصوصاً بعد تحول المحاور التجارية نحو الشرق. وفي السياق نفسه؛ تطرح على الباحثين إشكالية تاريخية عن طبيعة علاقات مملكة غانة الوثنية مع الدولة المُرابطية الصاعدة، ولمن رام الإحاطة بحيثيات القضية؛ ينظر: أحمد الشكري، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية: هل حقاً قام المُرابطون بغزو غانة؟ الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ١٩٩٧م.

(٣) تنبُكتُ: نشأت خلال القرن ١١م، قرب نهر النيجر (حوالي ٦كم)، وكانت إلى منتصف القرن ١٤م قرية صغيرة، ما يعني أنّ تطوّرها كان بطيئاً، ثم سرعان ما توسّعت طيلة القرن ١٥م، وخلال القرن التالي اكتسبت شهرةً واسعةً في بلاد السودان (إفريقيا الغربية؛ بالاصطلاح المعاصر)، وأضحت من أهـمّ المراكز التجارية والعواصم الحاضنة للثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة إلى يوم الناس هذا.
جِنّي: وإلى الجنوب منها في اتجاه قلب إقليم ماسنة تقع مدينة جِنّي، وهي قديمة في الإسلام، لذلك توثّقت علاقاتها بتنبُكتُ، وبالنظر لموقعها على أحد روافد نهر النيجر؛ فإنّ فيضانه في فصل الصيف يجعلها محاطة بالمياه؛ ما حمل البحّاثة الفرنسي ريموند موني (R. Mauny) على تشبيهها بمدينة البندقية الإيطالية، ولم تكن مدينة جنّي أقلّ شأناً من تنبُكتُ، إنْ على المستوى الثقافي أو التجاري، وموقعها حاليّاً ضمن حدود جمهورية مالي.

إنمـا يعود بالأساس إلى قُربها من مياه نهر النيجر، وأيضاً مـن الحيويـة التجاريـة لتنبُكـتُ باعتبارهـا نهايـةً للخطّ التجاريّ المنطلق مـن «سِجِلْماسَة»[1]، ولولا ذلك لانهارت «وَلاتَة» شأن غيرها مـن محطّات المرور؛ مثل: «أودغشت» و «غَانَة».

وقـد استفادت «وَلاتَة» من عنصـرٍ آخر، ساهم بشكلٍ حاسم في تطوّرها خلال مدّة قصيرة، وهو كون العديد من سكّانهـا المسُّوفيّين (نسبةً لقبيلة مَسُّوفـة الصِّنهاجية)، إنما جـاؤوا- أو بالأحـرى هاجروا إليها- مـن «أودغشت» و «غَانَـة» قُبيل انهيارهما، وبالتالـي حملوا معهم تجربَتَهم المهمّـة في التجارة الصحراوية؛ ممـا يسّر وزادَ في وتيرة سرعة تطوّر «وَلاتَة».

استراتيجية الانتشار المَجَالي: مَسُّوفة أربابُ تجارة:

علـى الرّغم من ضعف وفقر المـواد المَصْدريّة، التي يمكـن أنّ تُسعفنا في معرفة ملامح نشـأة «وَلاتَة»، أو اسم القبيـل الذي اهْتَدَى لبنائها، فإنّ ما تحت أيدينا يسمح لنا بالقـول بـأنّ «مَسُّوفة» كان لهـا دَوْرٌ بالغُ الأهميـة في نشأة المدينـة وتطوّرها، وقد امتدّت هـذه الحيوية لتشمل باقي المراكز الصّحراوية، وأيضاً مراكز الحوض الأوسط لنَهْر النيجر (كاغ[2] وتنبُكـتُ)، وما يوجد جنوبها، مثل: «جِنِّي»

كان هناك مجموعة من العوامل السلبية، والمتشابكة محليّاً وجهويّاً ودوليّاً، كان لها بالغ الأثر في تراجع «وَلاتَة» وغيرها من مراكز التجارة الصحراوية المعهودة

في إقليم «ماسن».

ويمكننا انطلاقاً من رواية الرحّالة ابن بطوطة، الذي زارَ مدينـة «وَلاتَة»، وأقام بها مدّةً تزيد على شَهْر ونصف، تلمّس الكثير من الأبعاد الدالة على حيوية مَسُّوفة ونشاطها بالمدينة وجوارها الإقليمي.

وفي هذا الإطار؛ يذكر رحّالتُنا أنه بمجرد وصوله إلى «سِجِلْماسَة»، قادماً إليها من فاس، أخذ في الاستعداد لمدة أربعـة أشهر لاجتياز الصّحراء؛ وفـي غرّة محرّم ٧٥٣هـ/ (١٨ فبرايـر ١٣٥٢م) خـرج منهـا ضمن قافلـة مُقدِّمُها: أبو مُحَمَّد يندكان المسُّوفـي، قاصداً عاصمة إمبراطورية مالـي، وبعـد ٢٥ يوماً وصـل إلى «تَغَـازَى»، «وهـي قريةٌ لا خيـرَ فيها، ومـن عجائبهـا أنّ بناء بيوتهـا ومسجدها من حجـارة الملح، وسقفها من جلود الجمـال ....، ولا يسكنها إلا عبيدُ مَسُّوفـة الذين يحفرون على الملح، ويتعيّشون بمَا يُجلب إليهم مـن تمر دَرْعة وسِجِلْماسَـة .... وقرية تَغَازَى على حقارتهـا يُتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التّبر. وأقمنـا بها عشـرة أيام (مارس ١٣٥٢م) فـي جهد؛ لأنّ ماءها زعاق، وهي أكثر المواضع ذباباً».

وبعد المعاناة التي صادفهـا رحّالتُنا في تَغَازَى واصَلَ مشـواره، إلى أن وَصَلَ مدينة «إيوالاتن» في غرة شَهْر ربيع الأول، بعـد شَهْرَيْن كامليْن من خروجـه من « سِجِلْماسَة»، ثمّ أضـاف قائلاً: «وهـي (إيوالاتن) أول عمالـة السودان

(١) تُعدّ سِجِلْماسَة- توجد جنوب المغرب- قاعدة التجارة الصّحراوية فيما بين القرن ١٠ و١٤م، أقام بها ابن بطوطة عدّة أشهر استعداداً للسفر إلى عاصمة مملكة مالي عام ١٣٥٢م. ونعتقد أنّ انهيار الوحدات السياسية على ضفّتَي الصّحراء (السلطة المَرِيْنِيّة بالشمال، والسلطة المَالِيّة بالجنوب)، وهو الحدث الذي تزامن مع وصول بعض فروع قبائل بني هلال (حسان) إلى المحيط الأطلنطي، ناهيك عن تحول المحاور التجارية نحو الشرق في اتجاه مصر، كلّ هذه العوامل المتشابكة كان لها دَوْرٌ أساسيٌّ في تراجع دَوْرها التجاري، ما أدّى إلى انهيارها منتصف القرن ١٥م. انظر: حسن حافظي علوي، سِجِلْماسَة وإقليمها في القرن ٨ الهجري/١٤ الميلادي، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٢) كَـاغ: مثل تنبُكتُ، توجد كَاغ ضمن الحدود السياسية لجمهورية مالي، تُعرف في المصادر السودانية برسم ثان: ـاو= Gao، بينما تشير إليها المصادر العربية باسمٍ ثالث: كوكو؛ وما تزال آثارها قائمة لحدّ الآن، وكثيراً ما يختلط الأمر على الدارسين فيعتقدون أنهم بإزاء ٣ مواقع أو مدن. توجد كاغ في الحوض الأوسط لنهر النيجر، غير بعيدة عن تنبكت؛ اتخذها السنغيون عاصمةً منذ عهد سني علي (١٤٦٨-١٤٩٢م) المؤسّس الحقيقي لدولة سُنغاي.

(يقصد: أول إقليم مملكة مالي من جهة الشمال) ونائب السلطان بها: فَرْبَا حسين، ومعناه النائب (= نائب السلطان) ...، وكانت إقامتي بإيوالاتن خمسين يوماً، أكرمني أهلُها وأضافوني، ومنهم قاضيها مُحَمَّد بن عبد الله بن بنومر وأخوه المدرّس يحيى .... وبلدة إيوالاتن شديدة الحرّ، وفيها يسير نخلات يزرعون في ظلالها البطيخ، ولحم الضّأن كثيرٌ بها، وثيابُ أهلها حِسانٌ مصرية ...، وأكثر السكان بها مَسُّوفة، ولنسائها الجمالُ الفائق، وهنّ أعظمُ شأناً من الرجال ...، وشأنُ هؤلاء القوم عجيبٌ وأمرُهم غريب، فأمّا الرجالُ فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدُهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجلُ إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيءٌ ما رأيتُه إلا عند كفّار بلاد المليبار من الهنود، أمّا هؤلاء فَهُم مسلمون محافظون على الصَّلَوات وتعلّم الفقه وحِفْظ القرآن ...، ولمّا عزمتُ على السفر إلى مالي (يقصد نيانى عاصمة المملكة)، وبينها وبين إيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمُجِدّ، اكتريتُ دليلاً من مَسُّوفة؛ إذ لا حاجة إلى السّفَر في رفقة؛ لأمن تلك الطريق ...)»[1].

وباستعراض المعطيات التي تطرحها روايةُ رحّالتنا؛ يتبيّن لنا أنّ وَلاتَة أصبحت تابعةً سياسيّاً لإمبراطورية مالي[2]، بَيْدَ أنّ جلّ قاطنيها من «مَسُّوفة». وبالموازاة مع ذلك؛ نسجّل تفاعل التقاليد الصّنهاجية مع التقاليد السودانية، ومن ذلك أنّ «لا ينتسب أحدُهم (من أهل وَلاتَة) إلى أبيه؛ بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجلُ إلا أبناء أخته دون بنيه»[3].

والمقام لا يسمح بتتبّع مختلف الأبعاد لرواية ابن بطوطة، على أنّ ما توقّفنا عنده يكشف بوضوح المكانة المهمّة التي تتنزلها روايته ضمن لائحة مصادرنا عن المنطقة خلال العصر الوسيط، وغنيٌّ عن البيان: أنّ جلّ الشهادات المَصْدريّة التاريخية حينئذ كان مركز اهتمامها منجذباً للحدث السياسي، وقلّما أسعفتنا بمعلومات ذات صبغة اقتصادية أو اجتماعية، وتبعاً لهذا النّهج الانتقائي؛ وقع التركيز على «لَمْتونة» بوصفها مؤسِّسة لدولة المُرابِطِيّن خلال القرن ٥هـ/١١م، بينما تمّ إهمال الأعمال المهمّة التي قامت بها «مَسُّوفة» في تيسير ظروف التجارة الصّحراوية وبناء المراكز التجارية، وغير ذلك مما يخدم التجارة ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان (= السودان الغربي)؛ وأما «جدالة»، فقد كان حظُّها أكثرَ سوءاً، حيث اختفت الإشارات التاريخية عنها مباشرةً بعد نجاح أَمْر الدولة المرابطية.

ولئن كان أصحابُ مصادرنا يصرّون على العناية بالجوانب السياسية وإهمال ما دونها؛ فإنّ الفلتات الصادرة عنهم عفواً تدعونا للتوقف عند أَمْرٍ غاية في الأهمية، يتمثّل في الانتشار الواسع لمَسُّوفة بمناطق مختلفة من الغرب الإسلامي؛ ذلك أنّ خريطة توزيعهم الجغرافيّ تنتقل بنا من مواقعهم الصحراوية المعهودة، ثمّ تأخذنا إلى مجمل مناطق المغرب المُرابطي بِمَا فيه الأندلس، وخلال القرون التالية، وبخاصّة ما بين القرنَيْن ١٣ و١٧م، يمكننا تعقّب آثارهم في أعماق بلاد السودان، سواء بجِنّي أو نيانى عاصمة مالي، أو في الحواضر السودانية المتصلة من الحوض الأوسط لنهر النيجر إلى المحيط الأطلنتي ونهر السنغال[4].

ويبدو أنّ استراتيجية الانتشار في المَجَال التي اعتمدتها «مَسُّوفة»، كانت تروم تيسير أمور التجارة، دون محاولة السيطرة السياسية أو العسكرية أو المنافسة عليهما، بل ركّزت جلّ طموحاتها على الجانب الاقتصادي،

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م، ج٢، ص (٧٧٦-٧٧٧). وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ابن بطوطة، أثناء زيارته لمملكة مالي، والتي دامت زهاءَ سنتين (١٣٥٢-١٣٥٤م)، حدّثنا عن الكثير من الأشخاص المغاربة المقيمين بالمملكة، وللاستزادة عن الموضوع، يُنظر مقالنا: «رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان»، مجلة المناهل، عدد خاص عن ابن بطوطة، رقم ٥٩، ١٩٩٩م.

(٢) أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (١٢٣٠-١٤٣٠م)، الرباط: منشورات مركز الدراسات الصّحراوية، الطبعة ٢، ٢٠١٥م، ص (٢٢٢-٢٢٧).

(٣) للوقوف على العديد من التقاليد السودانية، والتي استمرت شائعةً بين فئات المجتمع السوداني حتى بعد إسلامه، ينظر المرجع السابق، ص (١١٥ و٢١٩).

(٤) فضلاً عن الروايات المشهورة مما تناقله أصحاب مصادرنا عن مسُّوفة، مثل التي جاءت عند: البكري والإدريسي وابن سعيد وابن أبي زرع وابن بطوطة وابن خلدون.

وأَوْلتـه عنايـةً بالغة، ولـم تشغل نفسها بالأمـورِ السياسية مثلما فعلت «لَمْتونة»[١].

ونعتقـد أنّ هذا التوجّه شكّلَ أحـدَ الأسباب الأساسية فـي نجـاح وتوفيـق «مَسُّوفـة» فـي التجـارة الصّحراوية؛ وفي إطـار هذه المعطـى نستطيـع تَفهّم ازدهـار التجارة الصّحراوية في مراحل مختلفة من العصر الوسيط، وكيف أمكن لـ«شركة المقـري»، على الرّغم من عدوانية الفضاء الصّحراوي، أنّ تحقّق تطوّراً ملاحظاً في أساليب التجارة ما بيـن ضفّتَي الصّحراء، خصوصـاً خلال النصف الأول من القرن ١٤م، علماً بـأنّ «وَلاتَة»، إلى جانب «سِجِلْماسَة» و «تلمسـان»، شكّلت مثلث الارتكاز لنشاط الشركة، ووقتها كانـت تتبُكتُ ما تزال تعيشـ في ظلّ «وَلاتَـة» (إيوالاتن)، ولم تبرز بوصفها حاضرةً تجاريةً وثقافيةً إلا بعد منتصف القرن ١٥م[٢].

على أنّ دَوْرَ «مَسُّوفة» لـم يقتصر على خفارة القوافل التجارية بين ضفّتَي الصّحراء، وحمايتها أو ضمان أَمْنها، وتوفيـر كلّ ما من شأنه أنّ يُعيـن التجار في سَفَرهم لبلاد السودان، على امتداد رحلـة قد تدوم أكثر من ستة أشهر، ما بيـن رحلَتَي الذهاب والإياب، وإنما شمـل عملُهم أيضاً الوساطـة اللغوية فيما بين تجار بـلاد المغرب وتجار بلاد السودان[٣].

منعطف القرن ١٧م والمآل الاستعماري:

مباشرةً بعد وفاه السلطـان أسكيا داود سنة ١٥٨٢م؛ أخـذ الضعف يدبّ في جسم إمبراطورية سُنغاي[٤]؛ نتيجةً الهجمات المتوالية على أطرافهـا من جانب قبائل البنبار والموشي مـن الجنوب، والطوارق مـن الشمال، ثم جاءت الحملـة السّعديـة، التي قادهـا جودر باشا سنـة ١٥٩١م، لتهـدمَ ما تبقّى مـن أركان الدولة السُّنغيـة؛ وبعد أقلّ من عَقْـدٍ ونيّف؛ دخل أبناءُ السلطان أحمـد المنصور الذهبيّ فـي صـراعٍ حادٍّ حـول السلطة، ممـا جعل المغـرب بدَوْره يدخل في فوضى عارمة دامت عدّة عقود، وانتهت بانفراط عِقْـد الدولة السّعدية ممّا مهّدَ لقيـام الدولة العلوية خلال الثلث الأخير من القرن ١٧م[٥].

---

(١) معلومٌ أنّ لَمْتونة، خلال القرنَيْن ١٠ و١١ للميلاد، بادرت بإنشاء بعض المراكز الحضرية، ومنها: أودغشت وآزوكَي؛ بَيْد أنه بعد نجاح أمرها، وقيام الدولة المُرابطية، صعدت إلى الشمال وشيّدت مدينة مَرّاكش عام ١٠٧٠م. ويصنّف أحمد مولود الحواضر اللَمْتونية بالصحراء ضمن الجيل الأول، بينما يُدرج المدن المسُّوفية (ولاتة، ووادان، وتيشيت، وشنقيط) ضمن الجيل الثاني. انظر: أحمد مولود، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سابق، ص٦٢.

(٢) إنّ المتمرّس بالمواد المَصْدريّة ذات الصلة بالمجال الصّحراوي؛ يَخْلُص إلـى: أنّ اختراق الصّحراء وركوب مخاطرها خلال العصر الوسيط كان صعباً للغاية، ما يؤكد لنا أهمية دَوْر مسُّوفة في تيسير أعمال التجارة الصّحراوية، صحيحٌ أنّ المصادر شحيحةٌ بالنسبة لهيكلة القافلة التجارية وأساليب التعاقد فيما بين التجار؛ بَيْد أنّ الشركة التجارية التي أنشأتها أسرة المقري بتلمسان، خلال القرن ١٣م، تدلّنا على مدى تطور المبادرة التجارية فيما بين ضفّتَي الصّحراء.

(٣) هذا ما تُلمح إليه رواية الحسن الوزان الفاسيّ (المعروف بليون الإفريقي)، انظر مؤلّفه: وصف إفريقيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢-١٩٨٣م، ج٢/ ١٦٠.

(٤) قلنا سابقاً: إنّ السلطان سني علي (١٤٦٨-١٤٩٢م)، يعدّ المؤسّس الحقيقي لدولة سُنغاي بفضل توسعاته العسكرية. وفي عهد خلفه السلطان الحاج أسكيا محمد (١٤٩٢-١٥٢٨م) عرفت المملكة أَوْجَ ازدهارها، وإجمالاً يمكننا القول: إنّ السُّنغيّين، فيما بين منتصف القرن ١٥ ومنتصف القرن ١٦م، حاولوا قدر مستطاعهم الاستفادة من عائدات التجارة الصّحراوية، حيث توغل نفوذهم في أعماقها حتى شمل مملحة تَغَازَة نهاية القرن ١٥م، مما جعلهم خلال القرن الموالي يصطدمون بالتطلعات السياسية للسّعديّين. انظر: زوليخة بنرمضان، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنَيْن ١١ و١٦م، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ٢٠١٥م، ج٢/ص (٤١٥، ٤٥٩-٤٦٥).

(٥) على إثْر الحملة السّعدية، بقيادة جودر باشا عام ١٥٩١م ضدّ مملَكة سنغاي، قام بالمنطقة السودانية من الدولة السّعدية نظامُ حكم تحت إمْـرة الباشوات المغاربة، ثم سرعان ما أخذوا يُستقلّون بنفوذهم تدريجيّاً عن الحكم المركزي بمرَّاكش، خصوصاً بعد وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبيّ عام ١٦٠٣م، وانفـراط عقْد الدولة السّعدية، تبعاً لهذا أسّسوا لأنفسهم نظاماً خَاصّاً عُرف باسم «الرّماة»، انظر:
- كعت، القاضي محمود كعت وأحفاده، تاريخ الفتاش...؛ وهي النشرة الثانية عن الطبعة الأصل الصادرة سنة ١٩١٣-١٩١٤، ص (١٤٣، ١٥٣، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٣-١٧٤، ١٨١).
- الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار الكنتي

وبينما كان المغربُ السّعديّ غارقاً في مشكلات الانقسام؛ كانت القبائلُ العربيةُ المعقليةُ قد استكملت زحفها واكتساحها للمجال الشنقيطي، وواكَبَ ذلك مجموعة من الصِّدامات العسكرية، أهمّها حرب شربة في (١٦٧١-١٦٧٨م)، ونتج عن ذلك أوضاعٌ مستجَدّةٌ بالمنطقة على جميع الأصعدة: سياسيّاً: (ظهور نظام الإمارات)، واجتماعيّاً: (التمايز الفئوي الذي استمر قائماً إلى حين دخول الاستعمار الفرنسي: حسان، زوايا، اللّحمة)، وثقافيّاً: (انتشار اللهجة الحسانية)[١].

وأمام هذه الفوضى السياسية التي عمّت المنطقة؛ أخذت التجارة الصّحراوية تعرف نكوصاً شديداً بسبب انعدام الأمن، وأيضاً بسبب تفوّق «الكارافيل» على الجمل (سفينة الصحراء)، ويكفي أنّ نعلم، في هذا الباب، أنه إذا كان اجتياز الصّحراء يكلّف التاجر مدّةً تناهز الشهرَيْن في الذهاب ومثلها في الإياب؛ فإنّ السفن الإيبيرية اختصرت المدّة في شَهْرٍ واحدٍ ذهاباً وإياباً، وفوق ذلك كانت تحمل أثقالاً تفوق كثيراً ما كانت تحمله القوافل الصّحراوية[٢].

ومما زاد الطّين بلّة؛ أنّ منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر، حيث توجد «تنبُكتُ» و«كَاغ»، وهي الموانئ الطبيعية لوَلاتة، وجدت نفسها في منافسةٍ قويةٍ منذ مطلع القرن ١٥م، نتيجة صعود قوّة الإمارات الحوسية شرقاً ومملكة جولف غرباً. زد على ذلك: أنّ مناجم ذهب إفريقيا الغربية (غالم، بامبوك، وغوري)، التي كانت الهدف الأساسيّ للمُستكشفين الإيبيريّين، ومَن جاء بعدهم من الدول الأوروبية الأخرى خلال القرن ١٧م، وما تلاهم من (الهولنديّين، والإنجليز، والفرنسيّين)، لم تعد لها الأهمية نفسها حينما أخذت السفن الأوروبية، بعد منتصف القرن ١٦م، تعود من شواطئ أمريكا محمّلة بكميات معتبرة من هذا المعدن النفيس، وبات الاهتمام بجلب عبيد إفريقيا إلى مزارع القطن والسّكر بأمريكا هو الشاغل الأساسي لربابنة السفن[٣]، مما أثّر في البنية الديموغرافية بالقارة، فانضاف عاملٌ سلبيٌّ آخر إلى لائحة معيقات التطوّر بمنطقتنا، وذلك في انتظار الضربة القاضية المتمثلة في حدث الاستعمار الفرنسي عند ملتقى القرنَيْن ١٩ و٢٠ للميلاد[٤].

الوافي، ٢٠٠٣م، الرسالة الغلاوية، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، تحقيق حماه الله ولد السالم، ص٢٠٦.
Abitbol (M.), Tombouctou et les Arma, - Paris, Maisonneuve et Larose 1979, p. 104-84 et 250.

(١) اصطُلح على تسمية العهد الجديد بـ«العصر الحسّاني»، نسبة للّهجة الحسانية التي باتت منتشرةً بالفضاء الشّنقيطي خلال القرن ١٨م. واللهجة الحسانية في جُملتها عربيةٌ فصيحةٌ ممزوجةٌ ببعض الكلمات أو التعابير الزنانية (= كلام صِنْهاجة). ونوجّه عناية القارئ هنا إلى: أنه شأن مفهوم «بلاد السودان»، الذي نجد له العديد من المرادفات (= بلاد التكرور، إفريقيا الغربية، السودان الغربي، الفضاء السينغامبي، السودان النيجيري)؛ فإنّ مفهوم «بلاد شنقيط» أيضاً يُتداول للدلالة على: (بلاد صِنْهاجة الصحراء، المجال البيضاني، المنكب البرزخي، المجال الحساني)، انظر: أحمد الشكري، الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م (نموذج بلاد السودان)، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية ٢٠١٠م، ص (٢٣-٣٠).

(٢) الكارافيل: تعدّ الكارافيل، إلى جانب السلاح الناريّ والمطبعة، من الأدوات الأساسية في نجاح الكشوفات الجغرافية الأوروبية، لقد عانت الكشوفات الملاحية البرتغالية الكثير خلال العقدَيْن الثاني والثالث من القرن ١٥م، بيد أنه بعد اختراع الكارافيل تمكّنوا من تجاوز جلّ الصعاب الملاحية. وبحسب موسوعة ويكيبيديا؛ فإنّ الكارافيل (بالبرتغالية: Caravel): سفينة شراعية صغيرة ذات أشرعة مثلثة، طوّرها البرتغاليون في القرن ١٥م، تتميز بسرعتها وقدرتها العالية على المناورة، خصوصاً إذا كَانَتْ حمولتها منخفضة. يُراجع: الذاكرة الإفريقية، م. س، ص٦١ وما بعدها.

(٣) Voir: Delaunay (K.), Voyages à la Côte de l'Or (1500-1750). Étude historiographique des relations de voyage sur le littoral ivoirien et ghanéen, Paris, éd. Afera, Karthala 1994. p.13.

(٤) إنّ النجاحات الباهرة التي حقّقتها الكشوفات الجغرافية على يد البرتغال وإسبانيا خلال القرنين ١٥ و١٦م (اكتشاف أمريكا، والدوران حول إفريقيا)، والتي تدّعمت خلال القرنَيْن ١٧-١٨م بمجهودات هولندا وإنجلترا والدانمارك وفرنسا، أدّت إلى تراجع تدريجيٍّ للملاحة التجارية بالبحر الأبيض المتوسط لحسّاب الملاحة التجارية فيما بين ضفّتَي المحيط الأطلنطي. وانعكس ذلك سلباً على التجارة

وههنـا؛ لا بد من استحضار دَوْر العثمانيّين، بوصفهم قـوةً عالميةً إسلاميةً منذ القـرن ١٥م، في خريطة العالم القديم والجديد بعد اكتشاف أمريكا، والتساؤل عن كيفية تفاعلهم مع هذه المستجَدَّات؟

نَحْنُ نعلـم أنه بعد فتـح القُسطنطينيـة سنة ١٤٥٣م اهتزت عروش الممالك الأوروبية المسيحية[١]، ثم سرعان ما غيّر البابُ العالـي وجهته، فانتقل إلى الشام، ثم مصر التي دخلها العثمانيون سنة ١٥١٧م، واستمر زحفهم غرباً لإخضـاع جلّ أجـزاء الضفّـة الجنوبية للبحـر المتوسط، إلـى أنّ توقفت قواتهم عنـد نهر ملوية على حـدود الدولة السّعدية سنة ١٥٥٤م، وبذلك وجد المغرب السّعدي نفسه بيـن فَكَي أكبـر قوتَيْن في العالـم حينئذ: مملكـة إسبانيا والدولة العثمانية[٢].

ونسجّل أنّ التجربة التاريخية للعثمانيّين في ولاياتهم الواقعة على الضّفَّـة الجنوبية للمتوسط، وخصوصاً خلال القرنَيْـن ١٧ و١٨ للميـلاد، ركّـزت علـى فرض هيمنتهم

إنّ الموقع القَصِيَّ لِولاتة في أعماق الصحراء، لا يمكنه بأي حال أنّ يشكل عائقاً أمام تنمية وتطوير المدينة

السياسيـة (الضرائـب)، ثـمّ عرقلة ملاحة سفـن الدول الأوروبيـة بالبحـر الأبيض المتوسط من خـلال ما عُرف بالجهـاد البحـري، ونتيجةً لهـذه السياسة؛ يتضّـح لنا أنّ البـاب العالـي لم يشغل نفسـه بأمر التجـارة الصّحراوية وأوضاعها المقلقة، كما أننا لا نسجّل أية مبادرة جدّية لهم لتنشيطها بغرض استرجاع ديناميتها السابقة.

مجمـوعُ هـذه العوامـل السلبيـة، والمتشابكـة محليّاً وجهويّاً ودوليّاً، كان لها بالغُ الأثر في تراجع «وَلاتَة» وغيرها مـن مراكز التجـارة الصحراويـة المعهودة؛ وهـو تراجعٌ بـدأت مؤشّراته الأولـى منذ انهيـار «سِجِلْماسَة» منتصف القـرن ١٥م، علماً بأنّ المدينة شكّلـت، على امتداد قرون العصـر الوسيط، قاعـدةً أساسيةً للتجـارة الصّحراوية، وقـد نلمـس بعض جوانـب هذا التراجـع لوَلاتـة في كلام عبـد الرحمن السّعـدي عنها، ومما جاء عنـده: «أُسّست تنبُكتُ على يد تـوارق مقشرن في أواخـر القرن الخامس الهجـري (...)، ثم أخذ النّاسُ يسكنـون فيها ويعمّرونها، حتـى صارت سوقاً للتجـارة، وكان التسوّق قبلُ في بيرُ (= وَلاتَة)، وإليه تـرد الرفاق من: أهل مصر ووَرْجَلَان وفَزّان وغَدَامس وتـوَات ودَرْعَة وتَافلالت وفَاس وسُوس، ثم انتقل الجميـعُ إلى تنبُكتُ قليلاً قليلاً حتـى استكملوا فيه وزيادة مـع جميع القبائـل الصّنهاجية بأجناسهـا، فكانت عمارة تنبُكتُ خراب بيرُ»[٣].

وعلـى الرّغم من المبـادرات المتعدّدة التـي قام بها

الصّحراوية، حيث تراجعت أهميتها تدريجيّاً منذ منتصف القـرن ١٦م، ثم زادت حدّة التراجع خـلال القرنَيْن ١٧ و١٨م. ويلخّص المؤرخ البرتغالي ودينهو (Vitorino Magalhaes Godinho) كلّ هذه التحولات في مقولته الشهيرة: «لقد انتصرت الكارافيلُ على الجمل سفينة الصحراء»، وتعدّ الدراسات التي أنجزها العلامة والبحّـاثة الفرنسي فيرنـاند بروديل (Fernand BRAUDEL) من أهـمّ وأخصـب الأعمـال حول الموضوع. انظر:

La Méditerranée et le monde - méditerranéen à l›époque de Philippe II, Paris, Armand Colin, 1949 ; deuxième édition révisée, 1966.

(١) بالنظر لقوة الصدمة التي أحدثتها فتوحات الدولة العثمانية وبأس جيوشها في محاربة الأوروبيين؛ فقد بات الإسلامُ التركيُّ في كتابات الملاحين الأوروبيّين هو النموذج المعياريّ في منطقة السنغامبيا، علماً بأنّ الأتراك لم تكن لهم أيّ مساهمة تُذكر بهذا الخصوص. انظر:

De Moraes (N. I.), A la découverte de la - petite côte au 18è siècle, T I, p 72.

(٢) في سياق هذه الضغوطات من جانب العثمانيّين شرقاً والإسبان شمالاً؛ وجد أحمد المنصور السّعدي نفسه مندفعاً نحو الجنوب، فقام بحملته المشهورة على مملكة سُنغاي، التي قادها جودر باشا سنة ١٥٩١م.

(٣) عبد الرحمن السّعدي (ت. ١٦٥٦م)، تاريخ السودان، م. س، ص (٢٠-٢١).

بعضُ سلاطين الدولة العلوية منذ الثلث الأخير من القرن ١٧م، والتي استمرت طيلة القرنَيْن ١٨-١٩م، لإعادة إحياء التجارة الصّحراوية، ومن ذلك إنشاء ميناء الصويرة ١٧٦٧م، بغرض ربط التجارة الصّحراوية مع الملاحة الأوروبية، فإنّ الضغط الأوروبيّ المتزايد لم يسمح بأيّ انفراج بهذا الشأن، حتى إنّ «بول باسكون» في دراسته لكناشات «زاوية تازروالت» جنوب المغرب، فيما بين ١٨٥٣م و١٨٦٨م، يؤكد أنّ أسواق المدينة لم تستقبل سوى ١٩ عَبْداً وأَمَة[١].

وتَخْلُص فاطمة الزهراء طَمُوح، في أطروحتها إلى النتيجة نفسها؛ حينما أكّدت أنّ ميناء الصويرة خلال القرن ١٩م كان يستقبل أقلّ من ٥٠ كلغ من الذهب سنويّاً[٢]، وهي كميةٌ زهيدةٌ جدّاً مقارنةً بما كَانَتْ تستقبله المراكز التجارية على الضفّة الشمالية للصّحراء خلال العصر الوسيط، مثل: تاهرت وسِجِلْماسَة وغيرهما، وحسبنا هنا استحضار رواية ابن بطوطة التي أثبتناها سابقاً، حيث نلاحظ أنه أثناء كلامه عن تَغَازَة (تَغَازَى) قال في حقّها: إنها قرية على «حقارتها يُتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التّبر (الذهب في حالته الخام)».

وإذا جاز لنا متابعة رصد عناصر التراجع؛ يمكننا التوقّف عند ملاحظةٍ تُفصح عنها بشكلٍ عارضٍ جلّ المصادر العربية الوسيطية، وأيضاً الإيبيرية المتعلقة بالفضاء السنغامبي إلى مطلع القرن ١٧م، وتتمثّل في كون الكثير من المراكز الحضرية تتشكّل من مدينتَيْن (غَانَة العاصمة، كوكو، بريسي، سلى، صنغانة، إلخ)، ووَلاتَة لم تخالف القاعدة، حيث- هي الأخرى- كانت تتألف من ثلاثة أجزاء: بيرو، وإيوالاتن (وَلاتَة)، وتازخت التي دمّرها أولاد يونس في القرن ١٧م.

ومثل هذه الظاهرة توحي: بأنّ صيرورة التّراكم المؤدّي إلى التطوّر الاقتصاديّ المتصاعد لم تكن متاحةً أمام مدن القوافل الصّحراوية، وغيرها من المراكز الحضرية السودانية، لأسبابٍ مختلفة، ولعلّ هذا ما دفع ولد السّعد إلى القول: «إنّ نَسَقَ قِيَم القوم يتعارض مع اقتناء الثروة وادخارها وتنميتها؛ لأنّ اقتصادهم اقتصادُ توزيع لا اقتصاد تراكم، ولذا يُكتفى من تلك الثروات بسدّ الحاجات الآنيّة، واستثمار الجزء الأوفر في إنتاج القِيَم الرمزية عبر دَوْرةٍ توزيعيّةٍ واسعةٍ نسبيّاً»[٣].

جدلية الاقتصادي والثقافي:

عادةً ما تفيدُنا التجارب التاريخية للأمم والشعوب أنه ما إنْ يتحقّق فائضٌ- أو بالأحرى تطوّرٌ- اقتصاديٌّ حتى يأخذ المجتمع المعنيّ في تحقيق تطوّرٍ على المستوى الاجتماعي والثقافي، بَيْد أنّ هذه الصيرورة التاريخية لوَلاتَة ومحيطها الجهوي (بلاد شنقيط)، لم تعرف المسار نفسه، حيث أفرزت ظاهرةً متميزة، نكاد ألّا نجد لها مثيلاً في التجارب التاريخية لجلّ الأمم والشعوب.

إنّ المؤشرات والمعطيات الاقتصادية، ممّا وقفنا عليه قبل قليل، كلّها تسير بنا نحو تأكيد التراجع التدريجيّ للتجارة الصّحراوية منذ منتصف القرن ١٥م، إلى غاية دخول الاستعمار الفرنسيّ للمنطقة عند نهاية القرن ١٩م، الأمر الذي كان له تأثيرٌ سلبيٌّ على عدّة نواحٍ من حياة النّاس ببلاد شنقيط؛ بيد أنه بالموازاة مع ذلك؛ نسجّل أنّ الفترة نفسها (١٦-١٩م) شَهِدت نموّاً ثقافيّاً تدريجيّاً، بَلَغَ أعلى مستوياته خلال القرن ١٩م.

وبناءً على معطيات هذه الظاهرة الفريدة؛ طالب البحّاثة أحمد ولد الحسن (المتوفّى عام ٢٠٠١م) بضرورة إعادة تقييم وضع الثقافة العربية الإسلامية بناءً على ما أبانت عنه الثقافة الشّنقيطية من علوّ كعبٍ لافت خلال القرنَيْن ١٨ و١٩م، ومما يدفع به الباحثُ في دعم رأيه وإسناده: أنه حينما كانت الثقافة العربية في جلّ البلاد العربية الإسلامية تعاني من تدهورٍ وتراجعٍ بيّنَيْن؛

(١) محمد منصور، الوجه الآخر للتجارة: التبادل التجاري كوسيط ثقافي، ضمن مؤلّف جماعي: الذاكرة والهوية، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- بنمسيك ٢٠١٣م، ص٥٦.

(٢) Tamouh (Z.), Le Maroc et le Soudan au XIXe siècle. Contribution à une histoire régionale, Thèse de 3e cycle, Université de Panthéon- Sorbonne (Paris I) 1982, p .167

(٣) محمد المختار ولد السعد، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من ١٧٠٣ إلى ١٨٦٠م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠٢م، ج٢/ ص٧٠٢.

كانت بلاد شِنقيط تعرف نهضةً ثقافيةً ثرّة ومتميّزة خلال القرنَيْن المذكورَيْن، وبذلك لا يمكن بحالٍ أنّ تندرج ضمن التحقيبات الكلاسيكية المتداولة لدى المختصّين في النقد الأدبي العربي[١].

ولئن تفرّدت المنطقةُ بهذه الميزة؛ فلا بدّ لنا من استحضار جانبَيْن كان لهما أثرٌ بالغٌ في تأطيرها ومواكبتها، خصوصاً بعد نهاية القرن ١٧م، ونقصد أساساً انتشار التصوّف الطُّرقي بين القبائل (القادرية والتجّانية)، ثم تهافت القبائل الصِّنهاجية على طلب النّسب العربي.

إنّ العبرة المستخلصة من هذا الرصد التاريخيّ تُبيّن، بِمَا لا يدع مجالاً للشّك، أنّ الموقعَ القَصيَّ لوَلاتَة في أعماق الصّحراء لا يمكنه بأي حالٍ أنّ يشكّل عائقاً أمام تنمية المدينة وتطويرها؛ ما دام هناك حرصٌ صادقٌ من جانب أهلها وكلّ الغيورين على تراث المنطقة، لإعادة إحياء دَوْرها التاريخيّ المجيد، ومن ذلك ما يقوم به مركز البحوث والدراسات الولاتية، من جهد متميز في هذا المجال، وكذلك العمل على عمرانها وتنميتها، بتيسير الوصول إليها من خلال استكمال مشروع الطريق الذي يربط وَلاتَة بنواكشوط، وغيرها من مدن موريتانيا، لربطها بمحيطها الجهويّ والوطنيّ والدولي، وحينئذ؛ يمكننا التفكير في مشاريع اقتصادية واجتماعية، تأتي في مقدّمتها تلك المتعلقة بالتنمية السياحية والثقافية والبيئية، على غرار ما تفعل عددٌ من المؤسّسات غير الحكومية بتنبُكتُ.

إنّ فكرة استكمال الطريق، التي ما فتئ الأستاذ البحّاثة محمدو بن محمذن يؤكّدها ويدافع عنها، تمثّل في نظري مبادرةً نيّرة، إذ يمكنها أن تؤسّس لمرحلةٍ جديدةٍ في تاريخ المنطقة؛ وكأنّي بزميلنا محمذن يستلهم تجربة المؤرّخ الأمريكي روبرت فوغل (R. Fogel) الحَاصِل على جائزة نوبل عام ١٩٩٣م، ويعتمدها في نظرة استباقيةٍ لما يمكن أنّ تؤول إليه أمور المنطقة حين وَصْلِها بالشَّبكة الطُّرُقية[٢] ■

(١) ما تزال بلاد شنقيط (موريتانيا) إلى الآن مشهورةً باسم: «بلد المليون شاعر»، وقد حقّق شعراء المنطقة تميّزاً لافتاً في خريطة الشعر العربيّ خلال القرن ١٩م، الأمر نفسه ينطبق على الإنتاج الفقهي. انظر: أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري: مساهمة في وصف الأساليب، طرابلس، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ١٩٩٥م، ص (١٠٧، ٤١٠) وما بعدها. وللاستبحار في الجانب التاريخي الثقافي؛ يمدنا البحّاثة عبد الودود ولد عبد الله بمؤشرات بالغة الدلالة في مؤلَّفه: «الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن ١٨م»، الرباط: منشورات مركز الدراسات الصّحراوية ٢٠١٥م.

(٢) للاستئناس بنظرية فوغل، نحيل القارئ على مقالنا: «المغرب هبة الأطلس»، صدر ضمن مؤلَّف جماعي:
Ahmed CHOKRI et autres, Le Maroc don de l'Atlas, In Sur les pistes du présahara. 178-DTGSN-RABAT 2011, pp 165.